القصديّة في المراثي الحسينيّة وأثرها في حفظ الكرامة الإنسانيّة قصيدة (في رحاب الحسين للشّاعر عبد الرزاق عبد الواحد مثالًا)

أ.م. د. فائزة ثعبان منسي الموسوي

جامعة كربلاء/ كلية العلوم الاسلامية/ قسم اللغة العربية

أ.م. د. بشرى حنون محسن الساعدي

جامعة كربلاء/ كلية العلوم الاسلامية/ قسم اللغة العربية

أ.د. علي هاشم طلاب

جامعة المثنى / التربية للعلوم الانسانية

Intentionalism in the Husayni laments and its impact on preserving human dignity
The poem 'In the Rehab of Al-Hussein' by the poet Abd Al-Razzaq Abd Al-Wahed as an example

Asst. Prof. Dr Fa'aiza Thuban Mansi Almusawi

Asst. Prof. Dr Bushra Hanun Mohsen Al-Saadi

Prof. Dr. Ali Hashem Talab

ملخص البحث

تُعدّ القصديّة معياراً مهمّاً من المعايير النصيّة التي وضعها (دي بوجراند)، ومحوراً رئيساً من محاور التداوليّة، فهي إحدى مقومات توجيه أركان عمليّة التواصل في الخطابات بنحو عام، بوصفها عاملاً موجهاً لجميع عناصر الخطاب (المنشئ ، والنصّ، والمتلقي)، فالغاية التي يسعى إليها مُنشئ النصّ هي إيصال ما يريد من مقاصد لمتلقي النصّ عبر انتقاء الأساليب الخطابيّة المناسبة التي يستطيع بوساطتها تحقيق ما يرمي إليه من مقاصد؛ لأن كل حدث لغويّ تنضوي تحته دلالة معيّنة، وخلف كل دلالة قصد، سواء أكان هذا القصد حقيقياً أم غير حقيقي، فصاحب النصّ مقاصده مخفيّة خلف ما ينتقي من تعابير خطابيّة، ومُهمّة المتلقي تأويل تلك المقاصد بما يمتلك من معرفة مشتركة بينه وبين صاحب النصّ. لذا فإن تأثير هذا المعيار مهمّ في توضيح الدلالات، وتحديد مسارات الأفعال اللغويّة، وإن أي خلل يحصل في هذا المعيار يؤدي إلى فشل عمليّة التواصل؛ لذلك فلا وجود للنصّ أو الخطاب من دونه.

الكلمات المفتاحيّة:
القصديّة، المعايير النصيّة، المراثي الحسينيّة ، الكرامة الانسانيّة، عبد الرزاق عبد الواحد

Abstract

Intentionality is an important criterion of the textual criteria proposed by (De Beaugrande). It is also a major axis of the pragmatic axes, as it is one of the elements of directing the pillars of the communication process in discourses in general, considering it as a guiding factor for all the elements of the discourse (the originator, the text, and the recipient). The goal sought by the creator of the text is to communicate what he wants to the recipient by selecting the appropriate rhetorical methods through which he can achieve his aims. This is because every linguistic event has a specific signification and behind each sign is an intention, whether this intent is real or not. The author of the text has his intentions consealed behind what he chooses from the rhetorical expressions. The task of the recipient is to interpret these intentions with the knowledge he has in common with the author of the text. Hence, the impact of this criterion is important in clarifying the semantics and determining the paths of linguistic actions. Any defect that occurs in this criterion leads to the failure of the communication process. Therefore, there is no text or discourse without it.

المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، والصّلاة والسّلام على الصادق الأمين، وعلى أهل بيته الهداة المهديين، وعلى أصحابه المنتجبين.

وبعد:

تُعدّ القصديّة واحدة من أهم معايير النصّ التي وضعها (دي بو جراند)، وهو معيار مهمّ وفاعل وحيويّ يساعد على فهم العقليّة الإنسانيّة، وآلية تفكيرها، ويساهم في إنتاج الدلالات وانتقالها من حدود الوجود بالقوة إلى حدود الوجود بالفعل، وتمكين صاحب النصّ من التواصل مع المتلقي ضمن مقام كلاميّ خاص، له ظروفه ومقتضياته. وهو معيار يتعلق بشخصيّة صاحب النصّ نفسه، ويُعبّر عن مقاصده وما يريد من أهداف يحاول إيصالها للمتلقي بوساطة النصّ، فالقصديّة تمثّل العلاقة الفاعلة التي تربط العقل بموضوع معيّن، وبمعنىً آخر هي علاقة الفكر بالواقع، وهذا المفهوم أكده (هوسرل)، الذي يرى أن القصديّة لا تعني شيئا آخر مختلفاً عمّا يختص به الوعي بنحو جوهريّ وعام بوصفه وعياً بشيء ما، وبكونه يشير إلى موضوع تفكيره بذاته.

وقد ارتبطت القصديّة ارتباطاً وثيقاً بالخطابات الشعريّة، ممّا أدى إلى أن يتبنى القصد وظيفة ربط مكونات النصّ بمنشئ النصّ ومتلقيه وقرائن الاستعمال ربطاً يمكّنه من معرفة الدلالات الكامنة في النصّ، وذلك عبر رصد السلوك اللغويّ في الخطابات الشّعريّة وقواعده اللغويّة وتبدلاتها.

ولما كانت الكرامة من الموضوعات التي ارتبطت بالحالة النفسيّة والشّعوريّة للإنسان، ومن الأمور التي عرف بها العرب وأكدت عليها الشريعة الإسلاميّة السمحاء، ونادت بها، ودعت إلى المحافظة عليها،

صارت من الموضوعات التي تناولتها النصّوص الشّعريّة لكثير من الشعراء، ومن بينها قصيدة (في رحاب الحسين) للشاعر عبد الرزاق عبد الواحد، وهي قصيدة مفعمة بكل المعاني التي تؤكد مسألة الكرامة الإنسانيّة وترسمها رسماً دقيقاً عبر تناول واقعة الطف الأليمة وما جرى فيها من أحداث مثّلت الكرامة بأبهى صورها.

وقد وظّف الشّاعر الكثير من الرموز والأحداث للتعبير عن مقاصده وإيضاح فكرته، وترك للمتلقي حرية تأويل أبيات قصيدته ومعرفة المقاصد المعلنة والمقاصد الخفيّة فيها، مستعيناً بما يمتلك من معرفة مشتركة تسهل عمليّة التواصل بين الشّاعر ومتلقي القصيدة الشّعريّة. وقد جاء البحث ليكشف هذه المقاصد ويبين دلالتها، منتهجاً في ذلك منهجاً تحليليّاً نصيّاً.

وقد تفرع البحث إلى مبحثين هما:

أ- المفاهيم والحدود العامة لمصطلح القصديّة، وتأصيله في التراث اللغويّ العربيّ القديم، واستعماله في الدرس اللسانيّ الحديث.

ب- القصديّة والتأكيد على الكرامة الانسانيّة في قصيدة (في رحاب الحسين).

المبحث الأول: المفاهيم والحدود العامة لمصطلح القصديّة، وتأصيله في التراث اللغويّ العربيّ القديم، واستعماله في الدرس اللسانيّ الحديث.

القصديّة لغة واصطلاحاً:

أرتبط المفهوم اللغويّ للكلمة بعدّة معان منها: الاستقامة، والعدل، والاعتماد، وإتيان الشيء، وقد ذكر ذلك ابن منظور في قوله: (القصد: استقامة الطريق. قَصَد يَقْصِدُ قصداً، فهو قاصِد. وقوله تعالى: وعلى الله قَصْدُ السبيل؛ أي على الله تبيين الطريق المستقيم...، والقَصْدُ: العَدْل...، والقَصْدُ: الاعتمادُ والأمُّ. قَصَدَه يَقْصِدُه قَصْداً وقَصَدَ له وأقْصَدَني إليه الأمرُ،

وهو قَصْدُكَ وقَصْدَكَ أي تُجاهَك،... والقَصْدُ: إتيان الشيء. تقول قصَدْتُه وقصَدْتُ له وقصدْتُ إليه بمعنى. وقد قَصَدْتَ قَصادَة)[١].

أمّا المفهوم الاصطلاحي لها فلا يبعد كثيراً عن هذه المعاني، إذ أنه يدور في فلكها، فالقصد في الاصطلاح هو (الغايّة التواصليّة التي يريد المتكلم تحقيقها من الخطاب وقصده منه)[٢]، أما القصديّة فهي (تلك الخاصيّة لكثير من الحالات والحوادث العقليّة التي تتجه عن طريقها الأشياء وسير الأحوال في العالم أو تدور حولها أو تتعلق بها)[٣]، فهي بهذا المعنى تصوّر فلسفيّ مرتبط بحالات نفسيّة وعقليّة يصوّر (توجه ونوع الوعي أو الفكر نحو موضوع ما، والذي بفضله يصبح الموضوع واقعة داخليّة أو معطى للوعي، تنعكس فيه ماهيّته وجوهره، بهدف الوصول إلى معرفته)[٤]، فهي مظهر عام يعكس حالات العقل الكثيرة والمختلفة، مثل الاعتقاد والرغبة والأمل والحكم والقصد، التي بمجموعها تتشكل القصديّة[٥]. فهي خاصيّة يتميز بها العقل، تمكنه من التوجه نحو الأشياء الموجودة في العالم الخارجي، والتعلق بها[٦].

القصديّة في التراث اللغويّ العربيّ القديم:

عرف العلماء العرب القدامى مفهوم القصديّة، وتحدثوا عنه، فقد تناول الجاحظ (ت ٢٥٥ه) هذا المفهوم حين تحدّث عن معنى البيان فقال: (والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائناً ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل؛ لأن مدار الأمر والغاية التي يجري اليها القائل والسامع إنّما هو الفهم والإفهام. فبأي شيء

بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع)[٧]، فالجاحظ هنا استعمل مصطلح الإفهام للتعبير عن القصدية.

ونجد مصطلح القصديّة حاضراً في كتب عبد القاهر الجرجانيّ (ت٤٧١هـ)، ففي كتابه (دلائل الإعجاز) وتحديداً عند حديثه عن الفروق في الخبر يقول: (فإذا قلت: "زيدٌ منطلقٌ"، فقد أثبتَّ الانطلاق فعلاً له، من غير أن تجعله يتجدّد ويَحْدُثُ منه شيئاً فشيئاً، بل يكون المعنى فيه كالمعنى في قولك: "زيد طويل"، و"عمرو قصير": فكما لا تقصد ههنا إلى أن تجعل الطول أو القصر يتجدّد ويحدث، بل توجبهما وتثبتهما فقط،....، وأمّا الفعل، فإنّه يُقصَدُ فيه إلى ذلك)[٨]، فالواضح من قوله هذا أن استعمال الاسماء أو الأفعال في الحديث يكون عن قصد معين وإرادة متعمدة من قبل المتحدث.

القصديّة في الدراسات اللسانيّة الحديثة:

استعمل الباحثون الألمان من أمثال (فرانتس برنتانو BRENTANO ١٨٣٨-١٩١٧)، و(هوسرل HUSSERL ١٨٥٩-١٩٣٨) مصطلح النظريّة القصديّة في الدراسات اللغويّة الحديثة، ووضحا أن الهدف منها هو تحليل ووصف الارتباط الحاصل بين الفكر وبين موضوع ما؛ لغرض الكشف عن ماهيّته؛ ولهذا تسمى هذه النظريّة في بعض الأحيان بالموضوعيّة[٩]، لكن هذين الباحثين يفترقان في نظرتهم للقصديّة، فبرنتانو يربطها ربطاً فلسفيّاً بالنشاط النفسي؛ لأن الإدراك العقليّ عنده يركز على قسم من الظواهر النفسيّة الموجهة نحو شيء ما، فالظواهر النفسيّة لها وجهان: الأول هو توجيه العقل وربطه بموضوع معيّن، والثاني يتعلق بالإدراك الباطنيّ الذي يتحد

فيه الإدراك مع الفعل المدرك فيكونان شيئاً واحداً. ثم جاء بعدهما (أنطون مارتي ١٨٤٧-١٩١٤) وهو ممّن عاصر هوسرل ليطوّر مدرسة برنتانو، فقد اهتمّ بسايكولوجيّة المقاصد الباحثة في الوظائف النفسيّة، بهيأتها الفلسفيّة العامة[١٠]، كما ركز على أن يطرح أفكار برنتانو مستنداً إلى التصور الفلسفيّ[١١].

وقد ارتبط مصطلح القصديّة بعلوم اللغة المختلفة كالتداوليّة والأسلوبيّة وغيرها، فقد تحدّث رائد التداوليّة (أوستن Austeen) عن القصديّة قائلاً: (ومن أمثلة ما اعتراه سوء النيّة واحتمل غير قصده قولي: "إنّي أعد" مع أنّي لا أنوي أن أنجز ما وعدت)[١٢]، أما (جون سيرل J.Searle ١٩٣٢) فقد تحدّث عن القصديّة وعرّفها بأنّها تعني التوجه، وبيّن أن القصد والمقاصد إنّما هي من صور القصديّة ونوع من أنواعها[١٣].

المبحث الثاني: القصديّة والتأكيد على الكرامة الإنسانيّة في قصيدة (في رحاب الحسين)

تُعدّ قصيدة (في رحاب الحسين) للشّاعر عبد الرزاق عبد الواحد سجلاً حافلاً بالصور المجسدة لكل ما جرى في معركة الطف، وإن كانت تلك المعركة (أكبر من أن تستوعب في معنى لفظيّ ذي أبعادٍ محدودةٍ، وأعظم من أن تقاس بمقياس بشريّ)[١٤]. والشّاعر عبد الرزاق عبد الواحد وإن سار في قصيدته (في رحاب الحسين) على خارطة طريق الجواهري إلا أنّه استطاع أن يكتب قصيدةً نابعة من وجدانه وضميره، لتصف خصال ومآثر وصفات هذا الثّائر المعجز الذي لا تصفه كلمات، ويصوّر قيم الكرامة التي ثار من أجلها هذا الثّائر، وهو يبدأ برسم صورته بالقدوم مستهلاً مطلع القصيدة بطلب العفو وهو يمشي على هذه الصورة المنكسرة التي يشبه نفسه

فيها بالأسير الذليل الذي لا حول له ولا قوة، والظمآن المنكسر الحسير الذي وجد في الامام الحسين (عليه السلام) ملاذا آمنا يحتمي به من عاديات الزمن:

قَدمتُ... وَعَفوكَ عن مقدَمي
حَسيراً، أسيراً، كسيراً، ظَمي
قدِمتُ لأحرِمَ في رَحْبَتَيْك
سَلامٌ لِمَثواكَ من مَحرَمِ
فَمُذْ كنتُ طفلاً رأيتُ الحسين
مَناراً إلى ضوئه أنتَمي
ومُذْ كنتُ طفلاً وجَدتُ الحسين
ملاذاً بأسواره أحتَمي
وَمُذْ كنتُ طفلاً عرَفتُ الحسين
رِضاعاً... وللآن لم أُفطَمِ

فالشاعر الصابئي كان يرى بالحسين (عليه السلام) الملاذ الآمن للخائف المنكسر (ملاذا بأسواره احتمي)، والمستقر لمن يريد الحماية، ومنارا يستضاء به لمن أراد الهداية الى طريق الحق والرشاد، وبلوغ الكرامة حتى لو كان ثمنها الجود بالروح والدماء، ومن الملاحظ أن جميع الجمل الإخبارية التي بدأ بها الشّاعر قصيدته كانت تحمل قوة إنجازية مستلزمة إلى جانب قوتها الإنجازية الصريحة؛ لأن التخاطب بين المتحاورين لابد أن يكون مبنياً على (مبدأ التعاون) الذي حدده (بول غرايس Pul Grice ١٩١٣-١٩٨٨) عند حديثه عن قواعد الاستلزام الحواري أو التخاطبي، وهذا المبدأ يقتضي أن يلتزم المتحاوران بالقواعد التي تضبط التخاطب المثالي والصريح، وهذه القواعد هي: " الكم، الكيف، العلاقة أو الملاءمة بمقتضى الحال، الجهة "[١٥]، (فمتى بدا من أحدهما ظاهر الإخلال بهذه القاعدة أو تلك، وجب على الآخر أن يصرف كلام محاوره عن ظاهره إلى معنى خفي يقتضيه المقام، وهذا المعنى المصروف إليه يحصل بطريق الاستدلال من المعنى الظاهر ومن القرائن، وذلك بالذات ما عُبِّرَ عنه بـ "الاستلزام التخاطبي")[١٦]،

وعليه فإنّ إخباره بالقدوم إلى رحاب الإمام الحسين (عليه السلام) بهذه الهيئة التي وصفها (حَسيراً، أسيراً، كسيراً، ظَمي)؛ وتعليله ذلك بإرادته الإحرام من ذلك المكان المقدس؛ وإحرامه هذا يتطلب منه ان يكون بهذه الصفة، إنّ تصريحه هذا استلزم معنى آخر إضافي يفهمه المتلقي وهو تشبيه ضريح الإمام الحسين (عليه السلام) ببيت الله الحرام الذي لا يدخله داخل إلا محرما، فهذا الضريح صار كعبةً يحرمُ عندها الاحرار؛ لأنه خط لهم طريق الكرامة ورفض الذل والخضوع للظالم حين أطلق مقولته الخالدة (هيهات منا الذلة) مجسداً فيها أسمى عناوين الكرامة الإنسانية وأقدس تجسيداتها. إن الوظيفة الجماليّة التي تتسم بها النصوص الشّعرية تعد مرآة عاكسة للتجربة الشخصيّة للشّاعر، فهي الوسيلة التي يتمكن عبرها الشّاعر من أن يصبغ خطابه الشّعري بصبغة تجربته الذاتية، وذلك بوساطة استعمالاته التعبيريّة، وانتقائه لمعانٍ ثانويّة يخفي وراءها المعاني الحقيقية والمقاصد الفعلية، تاركاً للقارئ حرية تأويل تلك المقاصد بما يمتلك من خلفية معرفيّة عن موضوع النصّ الشّعريّ.

ونلحظ هنا أيضا قصدية الإشارات الزمانية التي ركز عليها الشّاعر وكررها لمرات متتالية (مذ كنت طفلاً)، للإشارة إلى طول مدة تعلق هذا الشّاعر ومعرفته بالإمام الحسين (عليه السلام) لأن سنوات حياته الطويلة قد اكسبته المعرفة الحقة بذلك الإمام الخالد، فهو هنا عمد إلى تكثيف الإشارات الزمانية في مقاطعه الأولى من القصيدة؛ لأن للبنية التكرارية في بنية النص أثراً فاعلاً في بناء المستوى الصوتي ومن ثم الدلالي فيه، أن هذا النمط الأسلوبي قد اتخذ مكانه بشكل انسيابي مولداً حيوية للنص وللكلمة

المكررة نفسها؛ لما تعبر به عن مدى تعلق الشاعر بالإمام منذ الطفولة، ويتوضح ذلك من تكراره عبارة (فمذ كنت طفلا رأيت الحسين، ومُذْ كنتُ طفلاً وجدت الحسين، ومُذْ كنتُ طفلاً عرفت الحسين) في ثلاث ابيات متتالية من قصيدته.

ويستمر الشّاعر في رسم هذه الصورة القدسيّة في قوله:

" سلامٌ عليك فأنتَ السَّلام
وإنْ كنتَ مُخْتَضِباً بالدَّم
وأنتَ الدَّليلُ إلى الكبرياء
بِما دِيسَ مِن صَدركَ الأكرمِ
وإنَّكَ مُعْتَصمُ الخائفين
يا مَن منَ الذَّبحِ لم يُعصمِ
لقد قلتَ للنفسِ هذا طريقُكِ
لاقِي بِه الموتَ كي تَسلَمي"

في هذا المقطع من القصيدة وظف الشّاعر عنصراً إشارياً اجتماعياً وهو كلمة (سلام)، وكررها مرتين؛ بقصد التوكيد ولفت انتباه المتلقي الى المعنى المراد؛ لأن العناصر الإشارية هي (التي تُسهم في توجيه القارئ إلى ما يصبو إليه المبدع)[١٧]، فجاءت في المرة الأولى نكرة للتعظيم وبيان مكانة المخاطب ورفيع منزلته، فالتحية يجب ان تأتي بصفة مغايرة عن كيفيتها مع عامة الناس، فتحتم لذلك أنّ تأتي ضمن نطاق رسمي يتلاءم مع منزلة الإمام الحسين (عليه السلام) ومكانته وهو سبط رسول الله (صلى الله عليه وآله) وسيد شباب أهل الجنة. أمّا في المرة الثانية فجاءت معرفة بـ (ال) التعريف، و(ال) تعريف هنا تعطي معنى الإشارة وتخصيص الشيء؛ لذلك نجد أنّ لفظة (سلام) قد اكتسبت معنىً آخر أضافي مع وجود (ال) التعريف، كما أنّ هذا المعنى قد قوي أكثر بوجود الاشارة الشخصية المتمثلة بضمير المخاطب (أنت). والحال هذه تنطبق أيضا على باقي الألفاظ المعرفة بـ (ال) في هذا المقطع مثل: (الدَّم، الدَّليلُ، الكبرياء،

الأكرم، الخائفين، الموتَ).

ونلحظ هنا أيضا أنّ الاشارات الشخصية المتمثلة بالضمائر كان لها النصيب الأوفر، إذ كثف الشّاعر هذه الضمار من بداية القصيدة وحتى نهايتها؛ لأنها (علامات يتوسل بها المتلفظون لإضفاء بُعد تداولي على خطاباتهم)[١٨]، وفي هذا المقطع أدت الضمائر وظيفتها الإشارية مستعينة بالسياقات التي وردت فيها للدلالة على معانيها وما تشير إليه من مقاصد؛ لأنها (تُعد ضرورية من ضروريات الخطاب التداولي فبواسطتها يتم إدراك قصدية المتلفظ، فلا يمكن تفسيرها بمعزل عن السياق الذي وردت فيه، كونها تُسهم في تحقيق بُنية الخطاب وتماسكه)[١٩]، وهذه الضمائر هي: (انت) في قوله: (سلامٌ عليك فأنتَ السَّلام)، و(تاء) المخاطب في كلمة (كنت) من قوله: (وإنْ كنتَ مُخْتَضِباً بالدَّم)، و (أنت) في قوله: (وأنتَ الدَّليلُ إلى الكبرياء)، و(كاف) الخطاب في كلمة (صدرك، إنك) من قوله: (بِما دِيسَ مِن صَدركَ الأكرمِ) و (وإنَّكَ مُعْتَصمُ الخائفين)، والضمير المستتر (أنت) للفعل (يعصم) في قوله: (يا مَن منَ الذَّبحِ لم يُعصمِ)، و(تاء) المخاطب في كلمة (قلت) من قوله: (لقد قلتَ للنفسِ هذا طريقُكِ)، كل هذه الضمائر هي إشارات شخصية تساهم في إبراز قصدية المتكلم، وتقوى بتظافرها مع سائر الاشارات الأخرى في السياق التخاطبي.

كما أنّ الأوصاف التي وصف بها الشّاعر الإمام الحسين (عليه السلام) – (السّلام، الدليل إلى الكبرياء ومعتصم الخائفين)– تُعدّ منجزا شعرياً للقصيدة الحسينيّة المعاصرة وإبداعاً جديداً يحسب لعبد الرزاق، فقد ابتعد عن الأوصاف التي تغنى بها الشّعراء السّابقون، وفي نصّه هذا يسير في حركة تواصليّة تطويريّة، وكل ذلك

ظهر بتضافر عناصر الصياغة الموجهة لبلورة الموقف النفسيّ الذي أبداه الشّاعر وأسقطه على مبناه. فالشاعر هنا وظّف الصور المتناقضة خدمة لمقاصده؛ لإيصال الصورة التي كان يريد إيصالها للمتلقي، ففي الوقت الذي يعطي الإمام الحسين (عليه السلام) صفة (السّلام)(سلام عليك فأنت السلام) كان يصور حالته (عليه السلام) وهو مخضباً بدمائه الطاهرة لتحقيق هذا السّلام(و إن كنت مختضباً بالدم).

وفي الوقت الذي أطلق عليه صفة الكبرياء (وأنت الدليل إلى الكبرياء)، كان يصور فيه حالته (عليه السلام) وقد صار تحت حوافر خيل الأعداء (بما ديس من صدرك الأكرم)، فرغم أن الخيل كانت تدوس صدره الشريف وترض أضلاعه الطاهرة، إلا أنه مثل الكبرياء أروع تمثيل حين ارتضى أن يداس صدره؛ لتحفظ مبادؤه ويحفظ الدين الإسلامي.

وجاء وصفه للإمام (عليه السلام) بمعتصم الخائفين مليئا بالأسى واللوعة (وانك معتصم الخائفين)، وهو مقرونٌ بتصوير حالته وهو يذبح ويفصل رأسه عن جسده الشريف(يا من من الذبح لم يعصم). فطريق الكرامة لابد له من تضحية، ونيلها لابد له من إصرار وثبات على الموقف. لقد كان الشاعر موفقا في بيان مقاصده خلف بنيات أسلوبية اختارها لتكون وسيلة لتحقيق هذه المقاصد، فالقارئ هنا يحاول بصورة جادة (اكتشاف ما لم يقله النص من خلال ما قاله)[٢٠].

ويستمر الشاعر برسم صوره الشعرية إلى أن يصل إلى قوله:

"وخُضت وقد ضُفرَ الموتُ ضَفْراً
فَما فيهِ للرّوحِ مِن مَخْرَمِ
وَما دار حَولَكَ بَل أنتَ دُرتَ
على الموت في زَردٍ مُحكَمِ

من الرَّفْض، والكبرياءِ العظيمة
حتى بَصرتَ، وحتى عَمِي
فَمَسَّكَ من دون قَصدٍ فَمات
وأبقاكَ نجماً من الأنْجُمِ "

ففي هذا المقطع من القصيدة يحاول الشاعر استمداد عزمه من عزم الإمام الحسين (عليه السلام)، فإنَّه يرى في تاريخه أنشودة لكل الثائرين. ونجد صوت الشاعر واضحاً عن طريق تلهفه، وتحسره لما أصاب الحسين (عليه السلام)، وكيف قدم نفسه قربانا لاستقامة الدين (وخضت و قد ضُفر الموت ضفرا)، ونلحظ هنا توظيف الشاعر الأفعال الكلامية المباشرة مستثمرا ما فيها من قوة إنجازية لخدمة مقاصده، فأورد الفعل الكلامي الإخباري (خضت) لما فيه من معنى لا يمكن أن يُدرك في غيره من الأفعال، فأصل الخوض هو المشيُ في الماء وتحريكه[٢١] ، أي أنّ الماشي يحيط به الماء إحاطة كاملة، وهذا المعنى الدقيق الذي أراد الشاعر أن يرسمه لمتلقي القصيدة، فصوّر الشّاعرُ الإمامَ (عليه السلام) وقد مشى بين جيش الأعداء وقد أحاطوا به إحاطة كاملة لم يتركوا له منفذا، وهو يمشي فيهم ويحركهم، هاربين من سيفه، وقوة بأسه كما يحرك الماشي الماء الذي يحيط بقدميه، وتكتمل الصورة الشعرية ومعها مقصدية الشّاعر باستعمال فعلٍ كلامي آخر هو الفعل المبني للمجهول (ضُفر) للتعبير عن الموت في ذلك الموقف الرهيب، والمؤكد باستعمال مفعوله المطلق (ضفرا)، فصور الموت وقد نُسج نسجاً وتشابك حتى لم يترك للإمام منفذا ولو بمقدار خرم الإبرة، إنّ القوة الإنجازية المتحققة من هذه الأفعال الإخبارية المباشرة هي تقديم أنموذج مشرف للثائر المضحي بكل شيء، المُتقدم نحو الموت بثبات من أجل تحقيق الغايات السامية.

ويستمر الشاعر في تصوير

الموت وهو يحاول الدوران حول الامام (عليه السلام) (و ما دار حولك بل انت درت..على الموت)، لكنه لم يتمكن منه، فرجع الموت مغلوبا على أمره؛ فالإمام هو من أختار الموت اختيارا وحط عليه بكل عظمة وقوة فقد كان أكثر بصيرة من الموت الذي عمي أمام قوة رفضه للحياة مع الظالمين(حتى بصرت و حتى عمي) فمات الموت حين مس الحسين (عليه السلام) (فمسك من دون قصد فمات)، ويستمر وصفه للأمام الحسين (عليه السلام) الذي شبهه بالنجم الذي بات يضيء السماء والذي لم ولن يأفل فكان ولا يزال رمزاً لكل الاحرار(و ابقاك نجما من الانجم)، ويستمر هذا النور الى يوم القيامة.وقد جعل الامام الحسين (عليه السلام) للموت منظوراً آخر لن يفهمه الا من يفهم معنى الكبرياء والإباء. إن هذه المعاني المتنوعة التي أراد الشاعر أن يصورها هي التي أعطت للقصيدة أبعادها؛ لأن قابلية التأويل وتعدد المعاني من أهم المميزات التي يتميز بها النص الشعري؛ لذلك فإن قضية الحكم على معنى النص الشعري تعد مسألة نسبية لا مجال للجزم بها؛ ولهذا تعددت المعاني بتعدد قراءات النص[٢٢].

ويسترسل الشّاعر في وصفه حتى يصل إلى قوله:

" ليومِ القيامة يبقى السؤال
هل الموتُ في شَكلِه المُبْهَم
هوَ القَدرُ المُبرَمُ اللايُرَدُّ
أم خادمُ القَدَر المُبْرَم
سَلامٌ عليكَ حَبيبَ النَّبيِّ
وَبُرْعُمَهُ...طِبْتَ من بُرعُمِ
حَمَلتَ أعَزَّ صفاتِ النَّبيِّ
وفُزت بمعيارِهِ الأقوَمِ "

ففي هذه الأبيات يستعرض صلة الإمام الحسين (عليه السلام) ومكانته في قلب النبي محمد(صلى الله عليه وآله)، فلطالما أكد الشعراء

على هذه الصلة لتهويل الجرم الذي ارتكب بحق ابن بنت النبي (صلى الله عليه وآله)، فهو تذكير لمن يتناسى صلة القرابة هذه، وأن الحسين هو برعم شجرة النبوة المباركة فكيف جوزوا لأنفسهم قطعه وهم يدَعون الاسلام، وهو حبيب الرسول الكريم الذي يدعون كذبا أنهم يتبعون رسالته الالهية، وهو وارث صفات النبي الخاتم (صلى الله عليه وآله) وحامل سجاياه وأوصافه، فالمقطع الشعري هنا يعطي للمتلقي فرصة مشاركة المؤلف في استخراج المعاني الكامنة في النص.

بعد ذلك يبدأ الشاعر بذكر آل الحسين (عليه السلام) وأصحابه الذين لم يبخلوا بأنفسهم وعيالهم ووضعوا أجسادهم الشريفة بوجه السهام والنبال للذود بصدورهم العري حماية لسيدهم ومولاهم الحسين (عليه السلام):

" سلامٌ على آلِكَ الحوَّمِ
حَوالَيكَ في ذلك المَضرَمِ
وَهُم يَدفعونَ بعُري الصدور
عن صدرِكَ الطاهرِ الأرحمِ
ويَحتضنونَ بكِبْر النَّبِّيين
ما غاصَ فيهم من الأسهُمِ
سلامٌ عليهم...على راحَتَين
كَشَمسَين في فَلَكٍ أقْتَمِ
تَشعُّ بطونُهُما بالضياء
وتَجري الدِّماءُ من المِعصَمِ "

فهذه الابيات تبين للقارئ مدى تفاني عائلة الحسين (عليه السلام) وأصحابه(سلام على آلك الحوم)، ومدى تمسكهم بإمامهم(وهم يدفعون بعري الصدور) وبالمبادئ التي زرعها فيهم وأول هذه المبادئ هي حفظ الكرامة والتضحية بالنفس لكي لا تمس ولا تهان.

فالحسين (عليه السلام) رغم جراحاته التي ملأت كل ذرة في جسمه الشريف، الا أنه يمثل الضياء الذي

يبدد عتمة القلوب والنفوس وينير دروب الاحرار ويهديهم إلى السبيل القويم، سلام عليك على راحتين - - كشمسين في فلك اقتم) وكل عضو من أعضائه الشريفة تنوء بألم الجراح فيخرج من كل قطرة دم شعاع يستمر ضياؤه الى يوم القيامة (تشع بطونها بالضياء -- و تجري الدماء من المعصم)، فهو يحكي قصة الخلود التي رسمت بالدم والتضحية في سبيل الدين وحفظ كرامة الانسان من أن يُستعبد من جديد. فالشاعر في كل بيت من أبيات قصيدته يعطي رموزا تحكي مقاصده وما يريد أن يقول، فكل كلمة في القصيدة تحمل خلفها عشرات الكلمات، وعشرات المعاني، التي يمكن الوصول عبرها الى قصد الشاعر عبر فحص الاحتمالات المتعددة التي يمكن للنص أن يعنيها[٢٣]

ولا ينسى الشاعر أن يقف أمام شجاعة السيدة زينب (عليها السلام) المرأة القويَّة التي تحمَّلت أعباء المسؤولية التي ترزح تحت ثقلها الجبال بعد كل ما حلَّ بأهلها:

"سلامٌ على هالَةٍ تَرتَقي
بلألائِها مُرتَقى مريَمِ
طَهور مُتَوَّجة بالجلال
مُخَضَّبَةٍ بالدَّمِ العَندَمِ
تَهاوَت فَصاحةُ كلِّ الرجال
أمامَ تَفَجُّعِها المُلهَمِ
فَراحَت تُزَعزعُ عَرشَ الضَّلال
بصوتٍ بأوجاعِهِ مُفعَمِ
ولو كان للأرض بعضُ الحياء
لَمَادَت بأحرُفِها اليُتَّمِ "

فالأسيرة التي استشهد أخواها وأهلها وحملت مسؤولية العيال واليتامى من الأطفال وهي تذود عنهم، كانت هي الملكة المتوجة بالجلال (طهور متوجة بالجلال) الذي ألجم ابن زياد في قصره،ويزيد في سلطانه وتهاوت فصاحة الجميع أمام فصاحتها (تهاوت فصاحة كل الرجال) لتزعزع العروش بصوتها المزلزل الذي قلب

الموازين وكشف الحقائق (فراحت تزعزع عرش الضلال ـ ـ بصوت بأوجاعه مفعم) وأشعلت بحججها القوية وشجاعتها التي فاقت شجاعة الفرسان فتيل الثورة في عقر ديار الظالمين.

وينعطف بعد ذلك عبد الرزاق عبد الواحد ليخاطب الحر الرياحي صاحب المواقف المشرفة الذي تحول من معسكر الاعداء الى معسكر الحسين (عليه السلام):

" سلامٌ على الحُرِّ في ساحتَيك
ومَقحَمِهِ جَلَّ من مَقحَمِ
سلامٌ عليهِ بحَجمِ العَذاب
وحَجمِ تَمَزُّقِهِ الأَشْهمِ
سلامٌ عليهِ...و عَتْبٌ عليه
عَتْبَ الشَّغوفِ بهِ المُغرَمِ
فَكيفَ، وفي ألفِ سَيفٍ لُجِمتَ
وعُمرَكَ يا حُرُّ لم تُلجمِ
وأحجَمتَ كيف، وفي ألفِ سيف
ولو كنتُ وَحديَ لم أُحجمِ "

عبد الرزاق عبد الواحد وقف مسلما ومعاتبا للحر (سلام عليه و عتب عليه ـ ـ عتب الشغوف به المغرم) على مواقفه التي ذكرها التاريخ والتي لم يصرح بها الشاعر لكنه وضحها في القصيدة تلميحا؛ لان النص الشعري هنا يمكن ان يقال أنه نص مفتوح، و (هو النص الذي يجعل قارئه ينفتح على آفاق مختلفة من الثقافات والذكريات والمعلومات. والقارئ هو الذي يفتح مغاليق النص، ويسهم في سبر كوامنه ويقول ما سكت عنه، ويظهر مكبوته. ذلك أن القارئ في المناهج النقدية الحداثية، أصبح يشارك المؤلف في كتابة النص، بما يستنبطه منه، وبما يضيفه إليه)[٢٤].

ويستمر الشاعر في وصف الفجيعة ليقف أمام شجاعة وبطولة ابي الفضل العباس (عليه السلام) فيقول:

" و يا سيّدي يا أعزَّ الرجال
يا مُشرَعاً قَطُّ لم يُعجمِ

ويا بنَ الذي سيفهُ ما يَزال
إذا قيلَ ياذا الفَقارِ احسِمِ
تُحِسُّ مروءَةَ مليونِ سيفٍ
سَرَتْ بين كَفِّكَ والمَحْزَمِ
وتُوشِكُ أن...ثمَّ تُرخي يَديك
وتُنكرُ زَعمَكَ من مَزْعَمِ
فأينَ سيوفُكَ من ذي الفَقار
وأينَكَ من ذلكَ الضَّيغَمِ
عليٌّ....عليَّ الهُدى والجهاد
عَظُمتَ لدى الله من مسلمِ "

ففي قول الشاعر: (يا مشرعا قط لم يعجم) إشارة الى العباس (عليه السلام) مبينا أنه قاتل في المعركة قتالا لم يشهد له مثيلا، وكأنه يقاتل للمرة الأولى وسيفه سيفا لم يجرب في معركة سابقة، ورغم ذلك كان قتاله بهذه الشجاعة وهذه البسالة، وكيف لا؟! وهو ابن علي (عليه السلام) صاحب سيف ذي الفقار الذي لا يشق له غبار في المعارك (و بن الذي سيفه ما يزال -- اذا قيل يا ذا الفقار احسم)، فأي معركة يدخلها الامام علي (عليه السلام) يحسمها بالنصر سواء النصر المادي أم المعنوي فانتصار الحق على الباطل هو النصر الحقيقي(علي علي الهدى والجهاد -- عظمت لدى الله من مسلم)، وهكذا كان العباس البطل الذي لم يشق له غبار في معركة الطف، فقد اختار الشاعر هذه العبارات ليعطي ابعادا دلالية مضافة تستشف عن طريق معرفة المتلقي بالواقعة، فالقصدية بوصفها أداة الإدراك أو الوعي تمكن العقل من استيعاب الخطابات بما يتلاءم مع مستوى الحس ويتطابق مع الواقع.

فالشاعر وقف أمام كل من شارك بالمعركة مستعرضا مواقفهم البطولية والإنسانية، فقد كان لواقعة الطف وما جرى فيها من أحداث هزت ضمير الانسانية أثر كبير في نفس الشاعر، وفجّرت في داخله كل الأفكار والمعاني التي نراها متسلسلة متتالية، بعدها يعود للحسين (عليه السلام)

ليكلمه ويشكو إليه حاله ويفصح عما في داخله من أحساس بالقهر:

" قَدِمتُ وعفوَكَ عن مَقدمي
مَزيجاً من الدّم والعلقَمِ
وَبي غَضَبٌ جَلَّ أن أدَّ ريه
ونَفسٌ أبَتْ أنْ أقولَ اكظِمي
كأنَّكَ أيقَظتَ جرحَ العراق
فَتَيَّارُهُ كلُّهُ في دَمي
ألَستَ الذي قالَ للباترات
خُذيني..وللنَّفسِ لا تُهزَمي
وطافَ بأولادِهِ والسيوف
عليهم سوارٌ على مِعصَمِ
فَضَجَّتْ بأضْلُعِهِ الكبرياء
وصاحَ على موتِهِ أقدِمِ "

ختم الشاعر قصيدته بمقطع يحاكي البداية (قدمت وعفوك عن مقدمي ـ ـ مزيج من الدم و العلقم) ولكنه كان عبارة عن بث للشكوى واستلهام للشجاعة التي حملها الامام الحسين وأهل بيته (عليه السلام) للدفاع عن الاسلام والمبادئ والقيم والاخلاق، فيخاطب الإمام (عليه السلام) وهو على يقين من أنه كان يعلم حين ضحى بأن تضحيته ستفجر المشاعر وتوقظ الضمائر وتهز أركان الظلمة في كل زمان ومكان، فكلماته لازالت شعارات يتغنى بها كل الثوار وها هي مقولته الخالدة:(إن كان دين محمد لن يستقيم الا بقتلي فيا سيوف خذيني)، قد جسدها الشاعر بقوله: (الست الذي قال للباترات ـ ـ خذيني وللنفس لا تهزمي)، فما كان من تلك الباترات الا ان طافت به وبأولاده جميعا وطوقتهم كما يطوق السوار المعصم، فنالت مبتغاها من أجسادهم(و طاف بأولاده و السيوف ـ ـ عليهم سوار على معصم)، ولكنها هُزمت أمام مبادئهم وكرامتهم وكبريائهم (فضجت بأضلعه الكبرياء ـ ـ و صاح على موته اقدمي).

إن قصيدة (في رحاب الحسين) من بدايتها وحتى نهايتها تكاد تكون

لوحة معبرة عن كرامة الإنسان ورفضه للذل والخنوع، فكل الألفاظ وكل الكلمات فيها كانت تحمل دلالات الكبرياء والكرامة عبر عرض وقائع معركة الطف الأليمة، وما جرى فيها من دروس وعبر ظلت خالدة عبر الزمن وظلت شخصياتها خالدة في الماضي والحاضر والمستقبل.

الخاتمة:

وختاما للبحث نذكر أهم النتاج التي توصلنا إليها:

١- استطاع الشاعر أن يوظف معيار القصدية توظيفا موفقا في قصيدته لتكريس مبدأ الكرامة الإنسانية في النفوس، وذلك من خلال بيان أثر تضحية الإمام الحسين (عليه السلام) وأهل بيته في سبيل حفظ الكرامة الإنسانية ورفض الظلم والجور.

٢- بإمكان المتلقي معرفة مقاصد المتكلم عن طريق المعاني والدلالات الكامنة في النص، ولا يقتصر ذلك على المعنى الحرفي فقط للكلمات التي يتألف منها النص.

٣- يمكن إخفاء المقاصد خلف بنيات أسلوبية يختارها الشاعر لتكون وسيلة لتحقيق هذه المقاصد.

٤- تمكن الشاعر من أن يصبغ خطابه الشعري بصبغة تجربته الذاتية، وذلك بوساطة استعمالاته التعبيرية، وانتقائه لمعان ثانوية يخفي وراءها المعاني الحقيقية والمقاصد الفعلية. ونلمس ذلك في خطابه للإمام الحسين (عليه السلام) وجعله جراحات الامام تمتد لتتصل بجراحات العراق في وقت كتابة القصيدة والوقت الحالي.

٥- وقف الشاعر أمام كل الشخصيات المحورية التي مثلت أركان الواقعة والركيزة التي حققت للطف هذا الخلود.

الهوامش:

١- لسان العرب، ابن منظور، مادة (قصد): مج٣/ ٣٥٣، وينظر: كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي: ج٥/ ٥٤.

٢- التداولية عند العلماء العرب، مسعود صحراوي: ٢٠٠.

٣- نظرية جون سيرل في القصدية، صلاح اسماعيل: ٦٠.

٤- المصدر نفسه: ٦٥.

٥- ينظر المصدر نفسه: ٦٦.

٦- ينظر الفينومينولوجيا وفن التأويل، محمد شوقي الزين،: ٢.

٧- البيان والتبيين، الجاحظ: ٧٦.

٨- دلائل الاعجاز، عبد القاهر الجرجاني: ١٧٤.

٩- ينظر: نظرية جون سيرل، صلاح اسماعيل: ٦٥.

١٠- ينظر: الظاهراتية وفلسفة اللغة، تطور مباحث الدلالة في الفلسفة النمساوية، عز العرب لحكيم بناني: ٩.

١١- ينظر: المصدر نفسه: ١٢.

١٢- نظرية أفعال الكلام العامة، كيف ننجز الاشياء بالكلام، أوستن: ٥٥.

١٣- ينظر: القصدية بحث في فلسفة العقل، جون سيرل: ٢١- ٢٤.

١٤- الحسين في الفكر المسيحي، انطوان بارا: ٥٩.

١٥- ينظر في أُصُول الحوار وتجديد علم الكلام، د. طه عبد الرحمن: ١٠٣-١٠٤.

١٦- المصدر نفسه: ١٠٤.

١٧- الإشاريات في ديوان "صحوة الغيم" لـ: "عبد الله العشي"، فريال ربعي وفريال قجاتي: ٥.

١٨- المصدر نفسه: ١٠.

١٩- المصدر نفسه: ١٠.

٢٠- إشكاليات القراءة وآليات التأويل، نصر حامد أبو زيد: ٣٦.

٢١- لسان العرب، لابن منظور؛ مادة (خ و ض).

٢٢- ينظر: النص المفتوح والنص المغلق، محمد عبد المطلب: ١١.

٢٣- ينظر: التأويلية مقاربة وتطبيق: مشروع قراءة في شعر فاضل العزاوي، محمود خليف خضير الحياني: ٨٤.

٢٤- النص المفتوح التفكيك أنموذجا، محمد عزام: ٥٣.

المصادر والمراجع:

١- الإشاريات في ديوان "صحوة الغيم" لـ: "عبد الله العشي"، فريال ربعي وفريال قجاتي، مذكرة ماستر، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر بسكرة، ٢٠١٩م.

٢- إشكاليات القراءة وآليات التأويل، نصر حامد أبو زيد، ط٧، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ٢٠٠٥م.

٣- الأعمال الشعرية، عبد الرزاق عبد الواحد، ط٢، وزارة الثقافة والاعلام، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ٢٠٠٠م.

٤- البيان والتبيين، أبو بحر عمرو بن عثمان الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، ج١، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٩م

٥- التأويلية مقاربة وتطبيق: مشروع قراءة في شعر فاضل العزاوي، محمود خليف خضير الحياني، ط١، دار غيداء للنشر والتويع، الأردن ٢٠١٣م.

٦- التداولية عند العلماء العرب. دراسة تداولية لظاهرة (الأفعال الكلامية) في التراث اللساني العربي، مسعود صحراوي، ط١، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ٢٠٠٥م.

٧- الحسين في الفكر المسيحي، انطوان بارا، ط٥، دار العلوم للطباعة والنشر، بيروت ٢٠٠٩م.

٨- دلائل الاعجاز، عبد القاهر الجرجاني(ت٤٧١ه)، تح: محمود محمد شاكر.

٩- الظاهراتية وفلسفة اللغة، تطور مباحث الدلالة في الفلسفة النمساوية، عز العرب لحكيم بناني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، أفريقيا الشرق، بيروت لبنان ٢٠٠٣م.

١٠- في أُصُول الحوار وتجديد علم الكلام، د. طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٢، المغرب، ٢٠٠٠م.

١١- الفينومينولوجيا وفن التأويل، محمد شوقي الزين، بحث منشور

على شبكة الانترنت http:// www.aljabriabed.net/ htm.(٢).٠٧azinl_n١٦

١٢- كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تح: مهدي المخزومي، وابراهيم السامرائي، سلسلة المعاجم والفهارس، (من دون معلومات أخرى).

١٣- لسان العرب، ابن منظور الافريقي، دار صادر، بيروت، لبنان (د.ت).

١٤- النص المفتوح والنص المغلق، محمد عبد المطلب، مجلة الموقف الأدبي، السنة / ٣٤، ع/ ٣٩٨، دمشق ٢٠٠٤م.

١٥- نظرية أفعال الكلام العامة، كيف ننجز الاشياء بالكلام، أوستن، تر: عبد القادر قينيني، افريقيا الشرق، (د.ت).

١٦- نظرية جون سيرل في القصدية، صلاح اسماعيل، ط١، دار قباء، ٢٠٠٧م.